

كارل فان دي فوستاين



رواية

# ضوء المساء الساطع

كارل فان دي فوستاين

# ضوء المساء الساطع



ترجمة: السيد طه

**سفا**  
SEFSafa PUBLISHING HOUSE  
WWW.SEFSafa.NET

السيد طه/ شاعر ومترجم، حاصل على درجة الليسانس في اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة الإسكندرية عام ٢٠١٧، وصدرت له ثلاث ترجمات حتى الآن.

ضوء المساء الساطع

طبعة 2021

رقم الإيداع: 2020/16871

التقييم الدولي: 978-977-821-169-6

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any form or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر

محمد البعلبي

إخراج فني

علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

This is a full translation of "De boer die sterft" (The Dying Peasant)  
By KAREL VAN DE WOESTIJNE, Originally published 1918.

This Book was published with the support of Flanders  
Literature ([www.flandersliterature.be](http://www.flandersliterature.be)).

 **FLANDERS  
LITERATURE**

  
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE  
WWW.SEFSAFA.NET  
elbaaly@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات  
5 ش المسجد الأقصى - من ش المنشية - الجيزة - ج م ع.

## تقديم<sup>(1)</sup>

يعتبر كارل فان دي فوستاين شاعرًا بالأساس، وعلى الرغم من أنه كتب عددًا لا بأس به من المقالات الصحفية والنقدية والأعمال الأدبية القصيرة، بالإضافة إلى روايته الوحيدة التي كتبها بالتعاون مع هيرمن تيرلينك، إلا أن مجموعاته الشعرية الثلاثة عشر تمثل قمة إبداعه الأدبي.

وُلد فان دي فوستاين في مدينة جنت في الإقليم الفلمنكي البلجيكي. وعلى العكس من معاصريه، أمثال إميلي فيرهايرن (1855 - 1916)، وموريس مايتزلينك (1862 - 1949)، الذين كتبوا بلغة الثقافة في ذلك العصر، اللغة الفرنسية، كتب دي فوستاين بلغته الأم. قضى دي فوستاين خلال السنوات بين عامي 1900 و1906، بعض الوقت في معسكر فني في قرية سانت مارتنز لاتيم، ثم عمل كمراسل صحفي للعديد من الصحف

---

1- مقدمة الترجمة الإنجليزية

الهولندية، وفي عام 1920، عُين أستاذًا في جامعة جنت.

كتب دي فوستاين الشعر متأثرًا بشعراء الرمزية الفرنسية، أمثال بودلير، ولافورج، ومورياس. وفي مجموعاته الشعرية الثلاث الأخيرة (ربما كُتبتوا كثلاثية)، حاول دي فوستاين تجاوز الحواس من أجل الوصول بروحه إلى الحرية الصوفية. ويمكن توضيح رؤية دي فوستاين عن الأغلل التي تكبل الكاتب، من خلال أحد قصائد مجموعته الشعرية الأخيرة، وهي القصيدة التي يتكرر ظهورها في المراجع الأدبية المختلفة:

أنا البندقة - تعيش دودة ناعمة وشاحبة

في حجرتي، تقضم تلك العمياء مني.

أنا التي تجعل بذوري من الظلمة عافية.

أنا الفراغ الذي لم يطلب شيئًا أو يشتكي.

أهجرني، وبالألَم المرح، أطقن نفسي.

أنا الوجبة الدائمة، التي تتغذى عليها

الديدان الحمقاء في الحلقات المغلقة

تلك الديدان الشاحبة، نافذة الصبر، ناكرة الجميل.

ولكن، لو لمسني إصبع طفل، فيمكنه أن يخمن قصتي:

يمكنه أن يسمع فراغي، لأنني أصدر صوتاً، لأنني أغني.

قد يبدو غريباً أن يكون العمل الذي اشتهر به دي فوستاين، وهو الذي كرس حياته كلها من أجل كتابة الشعر، هو هذه الحكاية عن مزارع مسن، تزوره مجموعة من الشخصيات قبل موته، تجسد حواسه الخمس، وتذكّره بالسعادة التي شعر بها أثناء حياته المتواضعة.

يرى المؤرخ الأدبي، جيرارد كنوفيلدر، تلك الحكاية باعتبارها تعبيراً عن الحياة الحسية المغرقة في الماديات، وبذلك تعتبر الحكاية انعكاساً لرؤية دي فوستاين الإشكالية حول الحياة الحسية.

## الفصل الأول

تمدد مزارع مسن محتضراً في سريره. امتلأ هواء غرفته في الطابق العلوي برائحة كريهة. وبينما يهبط الغسق، رقد ذلك المزارع محققاً من أعماق فراشه المصنوع من القش، يغطيه لحاف رمادي متسخ، وتمسك أصابعه النحيلة الداكنة بذلك اللحاف. راح يتأمل أصابعه للحظة، ثم فكر: «ها أنا ذا أبدأ الاستعداد للرحلة». ظل يحرق بعينيه اللامعتين فوق جلد خديه الأصفر المضطرب، ولم يهتز جبينه أو فمه الأسود الغائر. رأى المزارع المسن سريره الطويل، وخلفه الصندوق الأصفر عليه تمثال لمريم العذراء وبعض الأطباق، والحوائط الملطخة بالأزرق ويقع الملح، وبلاط الأرضية الأحمر الذي لم تجف أركانه. كان قد مر زمن طويل منذ أن كانت له زوجة، ومنذ أن ترك أبنائه جميعهم البيت. الآن، تزوره امرأة عجوز من حين لآخر، فكر فيها حين نظر إلى الصندوق ثم إلى الكرسي. ردد لنفسه: «الكرسي ليس في مكانه»، ثم رأى ضوء المساء يتجمع في ثنايا قماش الكرسي، وأحس ببعض البرودة حول كتفيه. أين ذهبت تلك المرأة؟ لم يبذل أي مجهود لكي يُحکم اللحاف حوله، فقد كان

يعرف أنه في فراش الموت.

المساء تزداد رماديته، وسرعان ما لم يعد هناك أي ضوء على بورسلين إناء الماء المقدس. رأى المزارع المسن أيضاً بجوار الإناء صورة لبيرتا أثناء المناولة الأولى، ما زالت الصورة واضحة تماماً. ماذا كتبت ببيرتا على تلك الصورة؟ ظل يبحث في ذاكرته لبعض الوقت، ولكنه لم يتذكر سوى أن لدى ببيرتا أحد عشر طفلاً. ها هو دوميان في الصورة أيضاً، إنه يعيش الآن في أمريكا، رغم أنه قد تزوج فتاةً من القرية، اسمها فيليستا. ظهرت فيليستا بجوار سريره، وسألته: «كيف حالك يا أبي؟» -أجابها: «حسنٌ، أفضل قليلاً من لو تلبّسني شيطان». كان من الصعب عليه التفوه بتلك الكلمات؛ لم يعد بإمكانه فتح فمه بالشكل المناسب. نظر المزارع المسن إلى جانب السرير، حيث كان يجب أن تكون فيليستا، ولكنها لم تكن هناك. قال متفكراً: «هذه هي الحقيقة»، ثم استدار بمجهود جهيد إلى جانبه الأيسر، ليواجه الحائط، فأصدر السرير أزيزاً. سحب المزارع المسن ذراعه أسفل اللحاف، فقد كان يشعر الآن ببرودة شديدة، ثم بلل شفتيه بلسانه حيث كانتا جافتين للغاية.

نظر المزارع المسن بعد ذلك إلى المساحة الواقعة بين الحائط والسرير، كان الظلام قد حل تماماً في تلك المساحة، وتجمع خيطٌ من الغبار الأبيض على حافة اللوح الجانبي للسرير. شعر المزارع

بالارتياح، وكانت إحدى ركبتيه ترتاح ضاغطةً على الأخرى. ردد لنفسه قائلاً: «لا بد أن تجلب لي تريز بعض الحليب الطازج. بعد قليل، سيصبح الوقت متأخرًا جدًا، امرأة حمقاء». ظن المزارع المسن أنه سمع صوت مقبض الباب الخلفي، فانتظر لبعض الوقت وأذناه تصغيان، قال من خلف أنفاسه: «ليست هي، على الأرجح»، ثم أصغى لوقت أطول قليلاً، حتى أصابه الإصغاء بألم في صدره، قال لنفسه: «لم يكن ذلك أي أحد على الأرجح». سمع المزارع بعد ذلك صوتاً يشبه الصوت الذي يصدر حين يتشمم أحد الحيوانات العشب الجاف. قال لنفسه متأكداً: «ستكون هي تلك المرة، ومعها معزتها»، إلا أن أحداً لم يدخل الحجرة. ففكر: «إنني أرقد هنا وحدي تماماً».

ترك المزارع المسن رأسه تستدير إلى الجهة الأخرى، وعدل من وضع أطرافه، فأصابه ألم شديد. أصبح الأمر أكثر وضوحاً الآن، رغم العتمة التي تلف كل شيء. كان سريره الأصفر لامعاً في الظلام، ورأى قبعته معلقة على الكرسي. نعم، كانت تلك قبعته، ولكنه لم يهتم بأمرها، فقد كانت رأسه خاوية من الداخل وكبيرة جداً. ما الذي فكر فيه فجأة؟ لم يتمكن من التذكر. كانت شفتاه ملتصقتين ببعضهما، حين تنهد قائلاً: «كم أنا وحيد في رقدتي تلك!» كان غاضباً بعض الشيء، تماماً مثلما اعتاد أن يغضب على زوجته. تساءل: «كم مضى على رحيلها؟» ثم بدأ بالعد، ولكنه لم يتمكن من الوصول إلى عدد السنوات التي انقضت منذ رحيل

زوجته. قال محاولاً تهدئة روعه: «لقد حل الظلام بالفعل»، ثم أغلق عينيه، فرأى مساحة دائرية كبيرة ليس فيها أي شيء مرئي، سوى خطين من الغبار الأصفر العالق. أراد أن يستمر في التفكير، ولكن لم يعد بإمكانه القيام بذلك. قال لنفسه: «سأخذ قيلولة»، ثم استقر في السرير استعداداً للنوم. رقد المزارع المسن عميقاً في سريرته، حتى لم يعد يحس على أي شيء ينام، ثم تحولت العتمة المجتمعة في عينيه إلى زرقة: وظهرت كرات صفراء وخضراء تتدحرج فيها. أصبحت رأسه أكثر دفئاً، وحرك لسانه على لثته التي لم تعد جافة كما كانت، وأصبحت ركبته النحيلتان دافئتين أيضاً، وكذلك بطنه. قال لنفسه كما لو أنه وجد من الضروري أن يشعر بالحزن: «ولكنني ما زلت لا أستطيع النوم، إنني أرقد هنا وحيداً للغاية»، ثم فكّر: «لقد كنت وحيداً لوقت طويل جداً» ... لم يعد يشعر الآن بأي ألم، بل ملأه الدفء وشعور لطيف، وعلى الرغم من ذلك كان على وشك الانفجار في البكاء. لم يكن ما منع المزارع من البكاء مقاومته لتلك الرغبة، بل شيء أشبه بالعناد، فهو لن يبقى بينما يرقد هكذا وحيداً، وحيداً للغاية. كان قد اعتاد أن يشعر بالغضب كلما عاد إلى المنزل من العمل ورأى أكوام القمامة التي أنجبها. الآن، يشعر بوحدته المريضة. خطرت له مجدداً فكرة أنه يحتضر، وقال صوت منتحب داخله:

«لن أحصل أبداً على ما أريد».

فتح المزارع المسن عينيه قليلاً، ولكن ظل كل شيء حوله كما لو أنه لم يفتحهما: ذات العتمة الزرقاء، وكرات القطيفة. مجدداً، أغلق عينيه اللتين أرهقتهما بالفعل محاولة فتحهما تلك. أصبحت عيناه الآن دافئتين، وكذلك صدره، ولم يعد بإمكانه الشعور بأنه يرقد في مكانه؛ أين هو على أي حال؟ ها هي زوجته مجدداً. كلا، إنها بيرتا، أكبر أبنائه، امتلكت بيرتا ذات مرة كلباً أبيضاً صغيراً، له شعر متموج. تدرجت الكرات في عتمة عيني المزارع المسن مثل كلاب بيضاء لها شعر متموج ... ثم عاد الصوت المنتحب داخله مرة أخرى: «لن أحصل أبداً على ما أريد».

أصبحت العتمة بعد ذلك بيضاءً مثل الحليب بعد أن يصبح لونه داكن قليلاً. كلا، هذا ليس ما حدث، بل إن ما حدث هو أن أصبحت رأس المزارع المسن نفسها بيضاءً مثل الحليب، رأسه من الداخل، ثم جاء الصوت من داخله مثل لحن قادم من بعيد: «لن ... أحصل ... أبداً» - ولكن بدأ ذلك البياض، ذلك البياض الدائري الذي لا يلمع، بدأ في التحرك بهدوء. «لن ... أحصل ... على ما أريد ... أبداً»، كان الصوت كما لو أنه يغني له كي ينام - «أتوقع أنها بيرتا»، ثم تراءى للمزارع المسن شخصٌ، يقف هناك في البياض المتأرجح، مرتدياً مريلة زرقاء. «ما زلت لا أستطيع النوم. لم أحصل قط على ما أريد. أنا ...»

ثم رأى المزارع المسن بوضوح تام أن ذلك الشخص لم يكن

ابنته بيرتا.

بل كانت فتاةً صغيرةً، ترتدي مريلاً زرقاء، وشعرها الأشقر الجميل، أكثر نعومةً وصفرةً من الزُّبد، وكان وجهها نقيًا، لامعًا مثل تفاحة، وعيناها زرقاوين مثل عيني عجل وليد. كانت الفتاة ترتدي بعناية شديدة رداءً قطنيًا ومريلاً. ما يزال على المريلة أثر ثنايا المكواة مثل مربعات حلوى الوافل. كانت يدا الفتاة كما لو أنهما خرجتا لتوهما من حوض الغسيل. لم تنبعث من الفتاة أي رائحة، وبدت متألقة مثل يوم ربيعي بعد مطر صباحي منعش.

قالت: «هراء، هراء، يا ناند، أنت لم تحصل أبدًا على ما تريد؟». كان فيها رطبًا وأحمرًا: «هراء!» وظل فيها مفتوحًا قليلًا، وعيناها تضحكان.

فكر ناند متجهماً: «هل جاءت كي تسخر مني؟» وظن أنه قال ذلك بصوت مرتفع، لكنه لم يكن قد قال شيئاً.

قالت الفتاة كأنها لم تسمعه: «هراء»، ثم سكتت لوهلة، وبعد ذلك توقفت عن الابتسام وقالت:

«هل تعرف من أنا يا ناند؟ أنا عيناك. ألا يجدر بك التعرف عليّ، فقد كنت معك دومًا؟ ولكنك أصبحت رجلًا مسنًا؛ ولم يعد بإمكانك تذكّري، وتقول إنك لم تحصل أبدًا على ما تريد؟ ألا تتذكر يا ناند؟ لقد كنت مجرد مزارع، مُربي ماشية لا يملك إلا

حيواناً واحداً، وطوال الخمس سنوات الأخيرة، لم تعد تملك أي حيوانات، فقد كنت تجلس بجوار المدفأة وتدخن غليونك، ولم يعد لديك أي أرض، ولكنك لطالما كنت مزارعاً جيداً قبل تلك السنوات، يا ناند؛ لم تذهب إلى أي مكان خلال الأسبوع سوى إلى مكان عملك، ولم تر سوى أطباق الطعام، ولم تفكر إلا فيما يجب عليك فعله. لم تكن تذهب للعب البولينج يوم الأحد بعد الكنيسة مثل الآخرين، ولم تشرب نقطة خمر واحدة في تلك الألعاب. كنت تتمشى حول أرضك، وتشعر بالاستمتاع. كنت تنظر إلى السماء، فإذا كانت زرقاء صافيةً، وإذا لم يكن الجفاف قد استمر لفترة طويلة، تملئك السعادة. أما لو كان الجفاف قد استمر لفترة طويلة، ورأيت السماء تعد بهطول المطر، فإنك تشعر بالسعادة. كنت تفعل ذلك يوم الأحد، ففي باقي أيام الأسبوع، على المرء أن يعمل. ويوم الأحد أيضاً، يا ناند، كنت تذهب إلى البستان لترى الأضرار التي أحدثها هطول الثلج؛ ولكن المزارع الجيد يبيع فاكهته دوماً بينما ما تزال في براعمها، ولذلك لم يكن يهتمك أمر الثلج. كنت تعرف أن تحليق الحمام في السماء علامة على قدوم العاصفة، ولكنك تعرف أيضاً أن البذور المدفونة جيداً في التربة لن تتأثر بالعواصف، بل بالعكس، ربما تكون العاصفة مفيدة لها

...

«لا ترى شيئاً آخر أيام الآحاد، غير أرضك التي تمتد مرتفعةً عن محيطها، إلا أن ذلك الارتفاع مفيد لصرف المياه. في بداية

الربيع، ما يزال بإمكانك رؤية التربة بين صفوف البذور، ولكن في مايو تظهر البراعم فيملئك الرضا. تظهر براعم اللفت الصفراء جدًا لدرجة تؤذي عينيك، وأثناء الليل، تصبح أشجار الفاكهة التي تملؤها البراعم، أكثر بياضًا مما هي عليه أثناء النهار. يملئك الحزن حين ترى رؤوس البطاطس قد احترقت بسبب الصقيع في ذلك الوقت من العام، إلا أن الموسم ما يزال في بدايته، وما زال بإمكان الجذور أن تنبت من جديد ... وحين يحل الصيف، ترى شيئًا مختلفًا؛ عندما تذهب أيام الآحاد لتتمشى بين رقع الأرض المزروعة بالحبوب، تتأمل لون الشعير الأصفر مثل زهور الهندباء البرية، وترى القمح ما يزال متأخرًا في نموه، ولونه نحاسي مثل البيرة، وترى أوراق البرسيم الخضراء، الخضراء جدًا، متجمعة في أكوام سمينية، وجميلة مثل الورد. تزهر البطاطس أيضًا، زهورًا بيضاءً أو في لون نبات الخبيزة الذي ينمو في الأركان المبتلة. في ذلك الوقت من العام أيضًا، ترى الماء، سطحه هادئ ولامع، فليس بإمكان أي شيء الاختباء من الشمس في ذلك الفصل من العام، إنه فصل عبّاد الشمس بجوار أكوام السماد. وبجوار الباب الخلفي، تنمو زهور الداليا الكبيرة مثل رؤوس الأطفال ... وحين يأتي الخريف، تحصد البطاطس من مخبأها. في أيام الآحاد بعد صلاة الغروب، يخرج رعاة البقر في ملابس المناولة الأولى، ليصنعوا نارًا يشوون فيها البطاطس، وينتشر الدخان في أعمدة طويلة في أرجاء الأرض. ترى ذلك المشهد مع اقتراب المساء،

بينما تستعد للذهاب إلى لعب الأوراق ... بعد ذلك، تحرث الأرض، وفي أيام الآحاد، تتابع عمل الحصان الإنجليزي في الأرض التي انقلبت وامتد باطنها في أكوام بنية سمينة، ثم تغرز البذور مرتدياً مريلتك المخصصة لذلك العمل، قبضتك تعرف ما تفعل، وذراعك تمتد على نطاق واسع، وقدماك تطآن الأرض بثقة رجل يزرع أرضه. كنت تفعل ذلك في أيام الآحاد، بلا راحة، لأن على المرء أن يستغل الوقت كلما أتيح له كي يقوم بما يجب.

«حصاد البنجر يعني أن الشتاء على الأبواب، لقد رأيت ذلك مراراً على مدار السنين، تتحول الأشجار إلى اللون الأسود بسبب الرطوبة، وتبحر الغربان في الهواء بحثاً عن شيءٍ تأكله، ثم يهبط الثلج، ثلج كثيف على الأرض وعلى الأسطح. لا يصبح للمزارع عمل في تلك الأثناء، سوى القليل من العمل في المنزل أو الحظيرة؛ وتشاهد من النافذة ثلوجاً بيضاء تتحول فوراً إلى اللون الأزرق تحت السماء الرصاصية...

«لقد رأيت الكثير من الأمور يا ناند؛ رأيت القرية والحانات الكثيرة أثناء ذهابك إلى السوق لتبيع مواشيك، التي كانت تمشي وراءك على أرجلها الطويلة مثل موكب مقدس، وعلى رؤوسها تلك البقع الدائرية. كنت تمتلك أبقاراً صغيرة دوماً، وما زال بإمكانك رؤيتها في الحظيرة، أو رؤيتها أثناء قيام أبنائك باصطحابها على طول القناة. جلبت كلباً ذات مرة من أجل جر العربة، كان

كلبًا عملاقًا، أصفر اللون يشبه ذلك الكلب الذي امتلكه الجزائر، وفي طريقك للبيت، علقت مقدمة العربة، فكان لا بد أن تدفع معه العربة طوال الطريق. رأيت حينها، في ذلك المساء الصيفي، كيف يمكن للتراب أن يتصاعد أثناء مشيك. كانت الأوراق تهتز على فروع الأشجار طوال الطريق، ولم تتمكن حتى من المرور على حانة 'هافواي' لتشرب كأس بيرة؛ لقد كان ذلك الكلب يجر العربة بقوة ... هل تتذكر؟ لقد مررت في القرية بمنزليين فارهين تخدم فيهما بنتاك، بإمكان المرء أن يسترخي تمامًا في مطابخ تلك البيوت. رأيت معرض بروكسل أيضًا، وما زال بإمكانك أن تتذكر جيدًا كيف أصابك المعرض بالدوار، وكيف أرهق قدميك بكثرة المشي ...

«ثم هل نسيت يا ناند؟ هل نسيت أنك كنت متزوجًا، ويني؟ لم يكن قد مضى على تسريحك من الجيش وقتًا طويلًا، وكان والدك ما يزال حيًا. مرت بك ذات صباح في الربيع، وكانت ريح منعشة تهب، فنثرت شعرها كله إلى الأمام وسقط على جبهتها، كم كانت تمتلك جدائل رائعة. ودفع الهواء بملابسها إلى الخلف، كانت تضحك أيضًا، وكان وجهها أحمرًا مثل البنجر. هكذا بدأ سقوطك في حبها على الفور، ثم تزوجتها بعد ذلك، وانجبت لك أطفالًا مثل الورد. لقد كانت زوجةً صالحةً دائمًا ... هراء، يا ناند، لم تحصل أبدًا على ما تريد؟ هل نسيت ويني، زوجتك؟ وماذا عن أطفالك؟ لقد رأيتهم جميعًا يكبرون، مثل الزهور، مثل زهور الفاوانيا.

لقد كانوا أطفالاً صالحين؛ ساعدوا والديهم. تزوج دوميان مبكراً بعض الشيء، ولكنه ما يزال مخلصاً على أي حال. إنه في أمريكا، لذلك لم تر أطفاله، ولكنك رأيت أطفال بيرتا جميعهم، إنها امرأة صالحة؛ تقوم بواجباتها تجاه أطفالها الاثني عشر. هل تعرف أنها أطلقت على أكبر أطفالها اسم ناندي، أليس كذلك؟ ...»

لم تقل الفتاة أي شيء بعد ذلك السؤال، وقال ناند لنفسه إنه يعرف بأمر ناندي. لقد كان يشبه بيرتا في طفولتها، غير أنه ولد. ابتسم. ما زالت بيرتا تهتم بأمره، وتجلب له البيض كل أسبوع، فهي تمتلك الكثير من الدجاج، ويذهب زوجها كل أحد ليعمل على إصلاح أعشاش الدجاج، وخلال الأسبوع يعمل في القرية -تكسب الكثير من المال من ذلك العمل، أكثر من العمل في مزرعة. لقد كان رجلاً صالحاً، وبيرتا كذلك، امرأة صالحة أيضاً. هل كانت بيرتا هي التي تقف بجانبه الآن؟ أم هو ناندي؟ بالفعل لم يكن لديه أي شكوى من أبنائه، أو من زوجته، وعلى الرغم من أن التفاخر أمرٌ سيء، إلا أنه لطالما قام بعمل جيد، مع حيواناته وأرضه. الأمر فقط أنه ... أن المرء لا ... أليس هذا صحيح يا بيرتا؟ تعرفين، أليس كذلك يا ابنتي؟ بيرتا؟ أليس الأمر كذلك يا بيرتا؟ ... بيرتا، لم لا تردين؟ بيرتا ...

أراد أن يستدير ناحيتها قليلاً، ولكنه لم يكن مضطراً، فقد كان يرى دون أن يحتاج إلى الاستدارة. لم تكن بيرتا. لم تكن الفتاة

ذات المريلة النظيفة. كانت امرأة أخرى تقف هناك.

«هذا صحيح يا رجل، هذا صحيح...»

فتحت المرأة عينيها ثم أغلقتها بأناقة، وكان وجهها أبيضاً للغاية، ولكن ليس باستطاعتك رؤية كيف يبدو، إلا أن ذلك لم يكن مهماً، فقد كانت ترتدي كل شيء باللون الأسود، مثل ماري بورجميسترس حين تجلس وراء الستار في الحجرة الأمامية الباردة ممسكةً بالخيط والإبرة، لا يمكنك رؤيتها جالسة هناك إلا إذا كنت تعرف بوجودها. لم تعد ماري تلك صغيرة، إلا أنها ما زالت تمتلك أخلاقاً مثالية. ليس بإمكان المرء رؤية تلك المرأة الواقفة هنا أيضاً، ترتدي رداءً دون مريلة، ولكن يمكن سماع صوتها العميق مثل أرغن في كنيسة، يصدر عنه صوت هادئ وحاد بعض الشيء.

قالت: «هذا صحيح يا رجل، لا يمكن للمرء أن يصنع حساءً دسماً من كل ما يرى».

تحدثت بلطف، مثل بنات فيمرز اللواتي ذهبن إلى المدرسة الداخلية. ظلت تفتح وتغلق عينيها، فأرهبته متابعة هاتين البقعيتين البيضاء والسوداء. أغلق عينيها، فلم يعد يرى سوى العتمة الزرقاء الجميلة، أراد أن يضحك قليلاً. كان الأمر كما لو أنه يريد أن يخدع ماري بورجميسترس تلك، لتظن أنه نائم. ردد

لنفسه: «دعها تتكلم!» ... ولكنها قالت أمرًا صحيحًا وجميلًا مثل اهتزاز الأرغن أثناء القداس، فاضطر إلى الإصغاء، قالت:

«من غير الممكن أن تكون شخصًا بعينين فقط، وبدون أذنين. أنا أذناك يا ناند، لطالما كنت أذنيك، حتى لو لم تكن تعرف ذلك، ولكنني لا أحمل أي ضغينة لك، فقد كنت تستخدم أذنيك جيدًا، وجعلك ذلك تحصل على متعة كبيرة، أليس كذلك؟

«فكر في الأمر يا ناند: كنت تبقى مستيقظًا في سريرك لوقت طويل مستمعًا إلى صياح الديكة، العلامة التي تعني أن عليك القيام إلى العمل. لم تكن تستلقي مستمعًا في أيام الاثنين فقط، حين يكون رأسك ثقيلًا بكؤوس البيرة، وكذلك في الشتاء، حين كانت الديكة الصغيرة تصيح في منتصف الليل، ولم يكن عليك أن تنهض قبل الفجر. كنت تستلقي في سريرك مستيقظًا لبعض الوقت وتصيح في تلك الديكة الصغيرة: 'اصمتوا'، ورغم ذلك، كنت تستمع إلى الحيوانات التي بدأت تتحرك في الحظيرة. تنهض على أي حال، تملأ القشعريرة جسدك من البرد، فتجعل شعرك يقف على بشرتك ... أما في الربيع، حين تستلقي في انتظار صياح الديكة، كان أحد الطيور يقيقك مستيقظًا بغنائها، إنه أحد تلك الطيور التي يعتقد الناس أنها تسأل دومًا عن شيء ما بغنائها، أو أحد تلك الطيور المائية التي تأتي في الجو الماطر تزقزق مثل مضخة مياه. تنهض. الآن، هناك مئة طائر على

الأشجار، يتعاركون ويتحركون بسرعة بينما الندى يتساقط من عليها. ترتدي زوجتك تنورتها، وبينما تعد القهوة، تكون قد ذهبتي إلى المزرعة، تجد البقرة تدوس التبن، والمعزة تحك جسدها في حائط الحظيرة، وخطم الخنزير أسفل الباب ينخر وتسيل منه السوائل. تعود إلى البيت، فتجد زوجتك واقفة في المدخل تنادي: «تكتكتك!»، فيقفز الدجاج فوق بعضه راکضاً ناحيتها، ويقف الديك بجلال رافعاً ساقه عاليًا، ويصيح متشككًا: «كك، كك، كك». تستمع إلى كل هذا، وتستمتع بكل ما يحدث من حولك. في الصيف، يكون الجميع قد غادر إلى عمله بحلول ذلك الوقت. يتوجب عليك الاستيقاظ مبكرًا ابتداءً من موسم حصاد الكتان إلى انتهاء موسم حصاد الشوفان، فتستمع إلى صدى موكب العاملين في المزارع، وهم يتقدمون على الطريق بينما ما يزال الظلام يلف البيت، وكثيرًا ما يتوقف الموكب في الطريق، ويرفع العاملين أصواتهم لينادوا على زملائهم الذين لم يخرجوا من بيوتهم بعد، وأينما أخذهم طريقهم، تصدر عن أعواد الكتان والحبوب التي يهزونها بأيديهم أصواتًا عالية، وبسرعة البرق، يرتفع صوت غناء الفؤوس. تستمع إلى وميض حجر الشحذ فوق صُلب الفؤوس، ومن بعيد، تُصدر المطارق أصواتها الراقصة. ينقر المطر على نافذتك متأخرًا في الصباح، في فصل الخريف. لست متعجلًا، رغم أن الديك قد صاح قبل فترة، تفكر: «قريبًا، سيصبح صوت الديك خشنًا بسبب هذا الجو البارد»، وترتدي بنطالك. تبقى في

البيت لبعض الوقت متسكعًا في أنحاءه. الآن، تسمع الضجيج داخل البيت أكثر وضوحًا: الأطفال يثرثرون أو يصرخون قبل أن يذهبوا إلى المدرسة، زوجتك تستحم في الماء الجاري، وتقول لك شيئًا. تذهب إلى الحظيرة بعد ذلك، لتطحن الحبوب، ويصدر عن المطحنة صوتها المكتوم بقوة مرحة، وربما تحتاج إلى نفض الحبوب ونخلها أولاً بالمنخل الذي يتدلى من السندرة، فتسمع صوت الحبوب وهي تتساقط مثل الثلوج على البلاستيك المشمع. في الحظيرة المجاورة، ينخر الخنزير ويزفر، ويقف الحمام على حوض العلف يحرك سيقانه ويهدل. -أليس صحيحًا أن الصباحات الشتوية بلا صوت، وأنت لا تستطيع سماع سقوط الثلج حتى ...

« ولكن في منتصف اليوم! -حين تعود إلى البيت في منتصف اليوم في مايو، فتسمع زوجتك تدير ذراع ممخضة الزبد. لا يدور الكثير من الحديث على الطاولة، لأنك تأكل. لكنه شهر مايو، ولذلك يأتي أطفال أو حمقى كبار السن يحملون عمود مايو المزين بالزهور الورقية وسلال البيض احتفالاً بعيد الربيع، ويغنون أغنية 'المسيح عمود مايو الجميل'. يأتون عند الظهر، لأنه الوقت الذي يكون فيه المزارعين جميعًا في بيوتهم. تنتهي الأغنية، ويأخذون بيضتين. بعد وجبة الغداء، يحين وقت الاسترخاء، ولكن ليس قبل أن تنتهي من تكديس التبن، بعد ذلك، يأتي وقت الفراغ. تتمدد على العشب البارد، على بطنك بسبب النحل الذي يطن حول

أذنيك حتى تؤلماك. لا يمكنك النوم في البداية، ولكن الطنين يهددك في النهاية حتى تغط في النوم، فلا تعود تسمع صوت شخير الآخرين الذين ينامون في البستان، ولكنك تستيقظ فجأة بسبب صوت شخيرك العالي. -ألا تتذكر؟ أثناء اقتراب الخريف، تسمع صوت سقوط التفاح مرتطمًا بالعشب اليانع تحت الأشجار الصامتة. بعد ذلك بوقت قصير، يبدأ الأطفال بضرب أشجار الجوز بالشوكات الزراعية أو هزها بجذوع الفول الطويلة، حتى يصدر عن أوراقها خشخشة مرتفعة وتسقط حبات الجوز مثل المرمر. ثم يصبح الشتاء على الأبواب، وحين تتناول طعامك في الحظيرة، تبدأ البقرة بالخوار طلبًا للأكل، فالحيوانات كلها داخل الحظائر الآن بسبب المطر. وفي الشتاء، حين تعود إلى البيت عند الظهر، لا يكون غناء زوجتك هو أول شيء تسمعه، بل صوت خنزير عيد الميلاد، يئن ويختنق تحت سكين الجزار الكبيرة. تذهب بسرعة إلى هناك لتشاهد الذبح: تسمع صوت سلخ الشعر، وتسمع صوت حك الجلد، وتسمع صوت دلق المياه. وفور أن يصبح الحيوان معلقًا على السلم، مفتوح البطن، تعود إلى البيت لتتناول الطعام، وفي اليوم التالي، يوم الأحد، تتكون وجبتك من ضلوع الخنزير المشوية.

«وبينما يتحرك اليوم ناحية المساء ... -هل تتذكر؟ هل تتذكر، يا ناند، كيف كنت تقضي الأيام، بينما فصل الصيف يحل بالتدريج، ويصبح بإمكانك الجلوس أمام باب البيت لتدخن

غليونك؟ كان إفارست قد بدأ يتودد إلى بيرتا، وكنت معجبًا به يا ناند، فقد كان يعمل بناءً في القرية، ولم يكن يشرب الخمر. الخمر تُدمر كل شيء؛ ولكن إفارست لم يكن يشرب سوى نقطة من الجين بعد القديس يوم الأحد، وبعد الظهرية بعض أكواب من البيرة أثناء لعب الأوراق. حين تكون شابًا يا ناند، يختلف الوضع بعض الشيء، فيصبح من حَقك أن تشرب من حين لآخر حتى الثمالة، ولكن لا بد أن يكون المرء قادرًا على الامتناع عن الشرب في أوقات العمل. لم يكن إفارست يشرب كثيرًا. في المساء، يأتي من القرية، يبدو من بعيد كأنه عمود جير أبيض، يركب عجلته التي تُصدر أصواتًا وتتقدم بهدوء ناحية البيت. يجلس إفارست تحت شجرة التفاح قليلًا، بينما تجلس بيرتا تخطيط بجوار باب البيت، يتبادلان حديثًا حلواً لبعض الوقت، بينما الإبرتان اللتان تخطيط بهما بيرتا تصطكان ببعضيهما. تهمس السماء، وبيرتا تضحك، كان ذلك أشبه ببريق. تخور البقرة القادمة من الحقل بصوت منخفض ... تتسلل إلى زريبة الخنزير، كانت ويني، زوجتك هناك في الزريبة، كانت قد سمعت الخنزيرة تئن وتخور. تشعل المصباح، فتجد أن الخنزيرة لم تكن على وشك الولادة كما ظننت، ولكنك تبقى مع ويني في الزريبة على أي حال، وتلعبان بالأوراق. تتكلمان همسًا بينما تجلسان على القش. يرتفع صوت أنين الخنزيرة التي كانت تستلقي على ظهرها والدموع تجري من عينيها المغلقتين، عاليًا، ثم تصيح فجأة: أوو!، لقد وُلد أول خنزير

صغير. بعد ذلك، يمضي كل شيء بسهولة، أصدرت الخنزيرة خمس صرخات قصيرة أخرى، وحركت ساقها الأماميين، دافعةً بالقش، ثم قفزت على ساقها وراحت تتشمم صغارها بخطمها المبلل. ولدت أربعة عشر خنزيرًا. بقيت ويني معها لبعض الوقت، لتتأكد من أنها ولدت كل الخنازير الصغيرة التي كانت تحملها. تخرج ويني من الزريبة بينما السماوات جميعًا تغني بصوت مرتفع أغاني البلابل، بإمكانك أن تظل تستمع إلى تلك البلابل طوال حياتك يا ناند ... -إلا أن الأصوات العالية تملأ المساءات الصيفية على وجه الخصوص، كل برك المياه في البيوت الكبيرة مملوءة بنقيق الضفادع، كما لو أن تلك الحيوانات تحب العيش بصحبة الأغنياء، أما ما يحب العيش بصحبة الفقراء فالصراصير، الصراصير المتناثرة في كل مكان لا تحب أن تعيش بعيدًا عن مساكنها الشتوية، ورغم كل تلك الأصوات، تبقى أصوات حاصدي الكتان التي ترن بعيدًا في المساء الأكثر جمالاً، حين ينتهون من حصاد قطعة أرض، وترتفع أصواتهم بالغناء احتفالاً بما أنجزوه تحت ضوء القمر، ويجيبون جميعهم بـ «نعم!» طويلة عالية في صوت واحد على السؤال: «هلا أكلنا ثريد الحصاد؟» تأكيدًا على إنجازهم. يصيح الأطفال مثل الديكة في يوم عيد القديس يوحنا، وعندما يعود المزارعون من الحقول بعد ذلك، وقد جمعوا الحبوب، تسمع أصوات القباقيب الخشنة وأصوات الغناء ترتفع: «وما يزال فيها زيت، فيها زيت»، وشمس الغروب الحمراء تلمع

على عرق صدورهم العارية ... يحتشد البعوض، البعوض الحاد مثل نصل، إنها إشارة على أن المساء سينعم بالهدوء قريباً.

«لكن المساء لا يصبح هادئاً في الخريف. تبقى داخل بيتك يا ناند في انتظار الليل القادم، وتعصف الريح العنيفة تحت عتبة الباب وتمر بين ساقيك، تسمع أزيزها في المدخنة، وتسمع ارتجاج باب حظيرة البقرة. يمكن للريح أن تصرخ كامرأة في المخاض، وتغضب كرجل الشرطة المحلي وهو سكران، يسكر كثيراً ذلك الرجل! ... يصغي الأطفال، وتملؤهم ألعابهم بالرضا، تسمعهم يقولون لبيرتا «أختاه»، وتسمع ببيرتا تطرق على الباب الخلفي، فيردون عليها قائلين: «با، بي، بو»، وتسمع زوجتك تقول: «لا تقلقوا، سأشعل المصباح، وحينها لن نسمع صوت الريح القوية». هكذا يحل الشتاء على الأراضي، حزيناً لأنه يمطر بغزارة، ولكنه لا يسبب الأذى، فقد حُصدت جميع المحاصيل. يجب عليك ارتداء المعطف، إذا اضطررت أن تذهب إلى الحظيرة لتضع طعاماً للحيوانات الهائجة طلباً للأكل. تسمع صوت قبقابك يحك الأرض تحت قدميك، وفي ذلك الوقت الجميل، تسمع أيضاً أغاني عيد الميلاد: «أيها النجم، أيها النجم، إلى أين عسانا نسير؟»، وعندما تنتهي الترنيمة، يصبح كل شيء هادئاً فجأة. وكذلك تسمع ترنيمة: «نحن ثلاثة ملوك من الشرق» ... أستطيع أن أرى فمك يتحرك يا ناند؛ كأنك أصبحت هناك بالفعل ...

«صحيح يا ناند، كل ذلك حدث. فكر في الأمر، لقد استمتعت بكل ذلك. أعرف جيداً أنك لم تكن مزارعاً عظيماً، ولكننا كلنا بشر، وكلنا نحصل على سعادة كبيرة من آذاننا. لعلك لم تكن أكثر من مجرد مُربي مواشي، ولكن...!»

ظل سؤال «ألن تتوقف تلك المرأة الحمقاء قريباً عن الكلام؟» يجول في ذهن ناند. وظل يردد في ذهنه قائلاً: «إن كلماتها تلك كلها أشبه بعنكبوت يجول في رأسي، كما لو أنه لم يكن لديّ سوى أذنين، ألا يبدو الأمر كما لو أنني...»، دارت تلك الكلمات في ذهنه مثل بكرات، بكرات تدور في نول. «يبدو الأمر كما لو أنني لم أمتلك أي عضو آخر...» تحول ذهنه إلى تشوش تتكرر فيه نفس الكلمات، تدور في مخه المرهق والمرتبك. حاول أن يرتب الكلمات، وأراد أن يتفوه بها، فهو لم يعد باستطاعته الاستماع أكثر إلى ماري بورجميسترس تلك. قال بتركيز شديد: «برغم أن حياتي كانت تمضي بشكل جيد، إلا أنني لم أستطع فعل أي شيء سوى...»

ثم فجأة، أفزعته ضحكة صاحبة.

## الفصل الثاني

سرعان ما انتهى فزعه بعد أن رأى بنوع من الوضوح؛ لم يكن بحاجة إلى فتح عينيه ليرى بذلك الوضوح. -ردد لنفسه: «إنه أمر سهل»، إلا أن ما رآه أفزعه مرة أخرى. أليست هذه هي المرأة المنحلة التي تسكن عند حافة الغابة؟ - نسي أمر ماري بورجميستر، ولكن الآن، ترقد فوقه تقريباً، تلك المرأة القذرة، ابنة صانع الأحذية الذي يسكن عند حافة الغابة، وينحت القباقيب من الخشب الأخضر، ويصنع في الشتاء تماثيل للسيد المسيح على الصليب من زجاجات الأدوية، كان على الجميع أن يجلبوا له الزجاجات كي يصنع لهم ذلك التمثال. يسكن صانع الأحذية في كوخ أسود ملتصق بجانب التل على حافة الغابة مثل صدف الحلزون، وتملاً الكوخ رائحة الزفت وأوراق الأشجار الذابلة. ردد ناند لنفسه: «نعم، ولكن لا بد أن ذلك الرجل قد مات منذ مدة!» زار ناند العاهرة، ابنة ذلك الرجل، في الغابة، ولكن بإمكانه أن يدافع عن نفسه قائلاً إنه كان ما يزال صغير السن وقتها، ولم يكن قد تزوج بعد، الآن، ضحك حين تذكر ذلك ... أين عساها أن

تكون الآن، زولما القذرة التي تعيش عند حافة الغابة؟ ولكنها كانت تنام فوقه تقريباً، ملابسها التي التصقت بجسدها ممتلئة بالقذارة، وتعلقت ورقتي شجر جافتين بشعرها الكتاني المملوء بالتراب، ويتمدد ذراعاها الحمراءوان مثل اللحم الأحمر على جانبي رأسه الساخن، وتفوح تنورتها برائحة الزفت وطين الغابة المبلل ومصارين الأرانب البرية. تصاعدت تلك الروائح إلى أنف ناند الذي أراد أن يقول: «يمكنني أن أشم رائحتك أيتها العاهرة الصغيرة!»

ولكنه لم يتمكن من التفوه بتلك الكلمات، لأنها كانت تجلس مستقيمةً، فرأى بوضوح شديد وجهها الذي كان يحيط به ضوء، وهو الأمر الذي أربكه. ضحكت مرة أخرى مثل ديك رومي، وأجابته قائلةً:

«ها؟ هذا مستحيل يا ناند، لا يمكن أن تكون قادرًا على الشم، أليستُ أنا أنفك؟ نعم يا ناند، نعم يا صغيري، أنا أنفك. ها! لقد ارتكبنا الكثير من الأعمال القذرة في حياتنا! ولا يمكنك أن تدعي أننا لم نستمتع بها». ضحكت مرة أخرى، ولكن بهدوء أكثر تلك المرة، كأنها تضحك لنفسها. قالت: «لقد بدأ كل شيء يا ناند، عندما كنت ما تزال رضيعًا»، أراد ناند أن يضحك -قالت: «هذا صحيح»، إلا أنه لم يتمكن من معرفة ما هو هذا الشيء الصحيح، فأصغى باستمتاع إلى تلك المرأة المجنونة، زولما، بينما تروي له حكايتها:

«تتذكر؟ لقد بدأ الأمر في مأوى الكلاب. لم تكن قد أتممت ثلاثة أعوام بعد. كنت تريد أن ترى الجراء الثلاثة الذين أنجبتهم الكلبة، وكانت الكلبة بصحبة والدك الذي ذهب ليعصب الروث السائل في البرميل في الخارج، فزحفت إلى داخل المأوى. ما زال بإمكانك أن تتذكر رائحته، ساخنة، مثل رائحة الأموات، مثل روث العجول المكوم في حظائر كبار المزارعين، وحامضة، مثل اللبن الفاسد أيضاً. شممت تلك الرائحة يا ناند، ولم تكن تعرف وقتها ما الذي تشبهه، ولكنك الآن تعرف. لم تر الجراء، ولكنك جلست في المأوى الدافئ المظلم، على القش المترب الذي تنام عليه الكلبة والذي فاحت منه رائحة لاذعة. أحببت وجودك هناك، وظللت ممدداً لفترة، ثم شعرت بحركة في المأوى، لقد كانت الجراء الصغيرة التي التقطت أنفك بنعومة وبدأت تمصها. أصابك الفزع يا ناند، وزحفت خارجاً، فتبعتك الجراء على بطونها ثم توقفت الجراء عند مدخل المأوى، وتمددت على جوانبها، عيونها مغلقة، وأفواهها مفتوحة طلباً للهواء.

«تتذكر يا ناند رائحة الخبز الساخن، حين كنت طفلاً، وكانت والدتك تتركك جالساً في حجرة الخبيز. وتتذكر التفاح في الغرفة العلوية فوق الدولاب؛ لم تتمكن من الوصول إليه. وتتذكر رائحة أنفاس والدك القوية، حين يمرر ذقنه الخشن على ذقنك ليلاعبك أيام الأحاد، بعد أن يكون قد مضغ بعض التبغ، وشرب كأس أو كأسين من الجين.

«تتذكر رائحة شعر أستاذك في المدرسة، أيام كنت تذهب إليها. كان لأستاذك وجهٌ أبيضٌ شاحب، وكان يدهن شعره بكريم أيام الأحاد فقط. تجلس بجواره في الكنيسة بينما يترأس الأطفال في قداس الأحد، وترى شعره اللامع، ورائحته التي تشبه رائحة الزهور والخل. ما زال بإمكانك أن تشم رائحة حوض الغسيل عند فينتي، خادم مكتب البلدية في القرية، حين أرسلك ناظر المدرسة حاملاً رسالةً إلى رئيس البلدية، يخبره فيها أنه قادم للعب الأوراق ذلك المساء. كنت تتجمع مع أقرانك يا ناند، في أحد أركان باحة الكنيسة، حدث ذلك كثيرًا عندما بلغت سن المناولة الأولى، كنتم تتهامسون وتتناقلون الأخبار. كانت في ذلك الركن حزمة من نباتات الهندباء التي تصبح رائحتها في المساء مثل بول القطط.

«هل تتذكر يا ناند؟ لقد حصلنا على المناولة الأولى سويًا في الكنيسة، ولكنك كثيرًا ما كنت تنظر لي في الفصل كأنك غاضب مني؛ وضربت تنورتي بقبابك ذات مرة. كانت تفوح من الكنيسة رائحة الشموع الدافئة التي تشبه الزبد، وتفوح من القسيس رائحة النشوق. بعد ذلك، لم نر بعضينا لأربع سنوات، ثم التقينا ذات مساء عند حافة الغابة، ودخلناها معًا. تفوح الغابة برائحة زيت التربنتين الذي يُستخدم في تنظيف الأفران. تمددنا هناك، وكان لنباتات السرخس رائحة الفلفل، وتزحف حولنا ألف حشرة على الأقل على الأرض، لها رائحة الخنافس، إذا شممتهم بتمعن.

تفوح منك رائحة الجبنة يا ناند ... عندما عدتَ إلى المزرعة، حيث كنت تعمل مُربي ماشية، ذهبت مباشرةً إلى سريرك في الحظيرة، دون أن تُلقي تحية المساء على أحد. كانت رأسك خفيفة وقلبك حائرًا. وكانت للأبقار رائحة غليظة، فكرت في ليلتها، ولم تتمكن من معرفة أي رائحة تفوح مني.

«بعد ذلك، بدأت تتوحد إلى ويني، يا ناند. كنت تتطلع إلى وضع اجتماعي أفضل؛ لم يكن قد مر على عودتك من الجيش وقت طويل، ولم تكن سيء المنظر أيضًا. في المساءات، تذهب لمغازلتها، مرتديًا معطفك. وفي الربيع، تتمشى بجوار قطع الأرض المحروثة، التي تفوح منها رائحة المشمش الأسود، وتختلط بها رائحة براميل الروث التي تقبع هناك حتى اليوم التالي.

«تفوح أشجار الليمون برائحة حلوة وحامضة في أواخر العام، وفي كل بيوت القرية، تبدأ الشجيرات القديمة بالتنفس. بالإضافة إلى كل ذلك، هناك التبغ الذي تشبه رائحته رائحة التبغ الجيد الذي يبيعهونه في المدينة المجاورة. تشعل والدة ويني النار تحت حلة الطبخ، فتفوح من قشر البطاطس نفس الرائحة التي تفوح منه طيلة العام. لم تكن تفوح من ويني سوى رائحة الكريمة طوال الوقت. وحين يأتي موعد السوق، وتمتلأ القرية برائحة حلوى الوافل والبيرة الساخنة، تذهب لترقص معها في الخيمات،

فتصيبك رائحة عرق ويني بالانتشاء.

«تزوجت، وممر الوقت سريعاً، يا رجل. كان عليك أن تشقى كثيراً ... تدس رأسك بين أعواد الذرة اللامعة، قابضاً على الفأس بقوة، ورائحة رأسك تشبه رائحة رغيف خبز الشعير. تنصب ظهرك واقفاً في الهواء لتشرب بعض الماء، فتمر المياه الباردة في فمك مثل النعناع، ويرتطم النحل الثمل بصدرك العاري اللامع، يمكن لرائحة النحل أن تشبه أي شيء، منه ما يشبه خبز الشعير أيضاً. تعود إلى البيت متأخراً في الليل، لتأكل البطاطس بصوص البصل، رائحة صوص البصل تشبه رائحة صوص البصل. تتمنى لو أن الصوص أكثر حموضة، ثم تضع أصغر أطفالك على ساقك، له رائحة الزبد، أما أطفالك الآخرين فلهم رائحة التفاح الحامض، أو رائحة أكوام الروث، أو رائحة برج الحمام، بحسب المكان الذي لعبوا فيه. لقد كبروا قليلاً. ما يزال تريفون موجوداً، لم تنجح معه أيُّ من محاولاتك، فقد كان الحصول على عجلة هو كل ما كان يحلم، وحين بلغ الخامسة عشر، أرسلته ليتدرب عند الحداد، فأصبحت رائحته تشبه رائحة زيت بذر الكتان وشحم الماكينات. أما بيرتا، فلطالما فاحت منها رائحة الصابون المنعشة ... تذهب لتجلس بالخارج لبعض الوقت، تجلس بين الزنابق يا ناند، فتعلق بها رائحة غليونك، وتعلق بغليونك رائحتها أيضاً. وبعد أن يذهب الأطفال إلى السرير، تستعد ويني أيضاً للذهاب إلى السرير، ما زال ذراعها يفوحان برائحة الاستحمام، ويفوح رداؤها برائحة

الخميرة. تتسكع قليلاً معها قبل أن تذهبا إلى السرير. تستيقظ صباحاً، فتأخذ شبكة الصيد من الحظيرة، وتضع القبعة على رأسك. تجلس في بطن قاربك المسطح، المربوط على ضفة النهر، وتُلقي بالشبكة وتنتظر. تنبعث الأبخرة من النهر، وفوق سطحه يمر نسيم خفيف له رائحة الأشجار الباردة في البساتين على الضفتين. أما في القارب، قريباً جداً هكذا من المياه، فالأجواء تعبق برائحة التحلل والطين، وسرعان ما تعلق تلك الرائحة بجلدك. لا يجب أن تجلس هكذا لوقت طويل، لأن الأشياء المبتلة التي تخرج من قاع النهر في الشبكة تسبب الصداع، وكذلك الشبكة التي أصبحت رائحتها تشبه رائحة الطين. ما الذي تنجح في اصطياده؟ تصطاد بعض ثعابين الماء الصغيرة، ومن حين لآخر، تصطاد سمكة بوري صغيرة، ونادرًا ما تصطاد سمكة قشر بياض. تسمع صوت المياه المتقاطر من الشبكة بينما تخرج بالكامل من النهر ...

«هكذا كبرت في السن يا عزيزي ناند. أصبح أطفالك نساءً ورجالاً بالغين، ولم تعد ترغب في الذهاب بعيداً عن مزرعتك. شغلتك الحياة، فلم تعد تتمكن من النوم ليلاً، كان ذلك الوقت هو وقت بذل الكثير من العمل، بالإضافة إلى أن البعوض يلتصق بك، فلا تستطيع النوم، أليس كذلك؟ تدهن وجهك ويديك بالنفط الأبيض الذي يبعد البعوض، ولكن الرائحة كانت تُبقي ويني متيقظة، تتذمر. في الشتاء، تذهب إلى النوم مرتدياً المعطف

المخصص للعمل في الروث كي يدفئك، كلما كبر المرء، كلما زاد تأثره بالبرد، ولكن ويني تتذمر مجدداً، فرائحة المعطف نتنة، كأنكما تتنافسان سويًا من له رائحة أنفذ، فويني تتعرق كثيرًا أثناء الليل حتى يمتلئ السرير برائحة العرق، ولكنك لم تقل شيئاً أبداً، وكنت تكثفي بالابتعاد قليلاً عنها ...»

ضحكت زولما لنفسها مجدداً. لم يعد ناند يفكر فيها، بل كان يتذكر ويني. كانت ويني قد ماتت منذ زمن، ولكنه ما يزال يتذكرها جيداً، يتذكر رائحتها التي تشبه الشمع، كلا، تشبه عشب الفئران الورقي الذي وجدته ذات مرة في حوض العلف، كلا، بل كانت رائحتها تشبهه، تشبهه ...

تحرك ناند مقاومًا، وقال: «دعيني في سلام! كل ذلك الحديث عن رائحة كذا، ورائحة كذا، كل ذلك الكلام عن الروائح، ولا شيء عن المذاق أبداً!»

فجأة، سمع ناند صوتاً قاسياً، يوبخه قائلاً: «ما هذا الكلام الذي تجرأت على قوله؟»

## الفصل الثالث

لم يتفاجأ ناند بذلك السؤال المباغت، فلطالما كانت بولدينا، خادمة القسيس، تتصرف على ذلك النحو. ليس هناك مجال للتشكيك في أن تلك المرأة هي بولدينا، خادمة القسيس، بالإضافة إلى ذلك، كان ناند مسترخياً تماماً في سريره الآن، وليس بإمكان أي شيء أن يفاجئه. استلقى ناند في سكون عميق ودافئ، وملئه شعور قوي بالرضا. ألا يجب عليه أن يلقي التحية على بولدينا؟ بلى، فهو نائم في سريره. لا، لم يكن نائماً، ولكن لا بد أنها تظن ذلك؛ فهذا ما يفعله الناس حين يمرضون ... هل كان مريضاً حقاً؟ لم يعد بإمكانه أن يدرك ذلك، ولكنه مريض. في الحقيقة، كان يحتضر. جاءت بولدينا ببعض الطعام من بيت القسيس. هل يجب عليه أن يفتح عينيه؟ مر وقت طويل قبل أن يدرك ناند أنه ربما من الأفضل أن يفتح عينيه. في تلك الأثناء، وقفت بولدينا بجواره. شعر ناند بوجودها، ولم يكن بحاجة إلى فتح عينيه لكي يدرك تلك الحقيقة. كانت ترتدي معطفها ذا الحواف غير المنتظمة، وفي ثنايا غطاء رأسها المطرز علبة نشوق. ومرة أخرى، كان على وجهها الصارم ضمادات حمراء. يعرف الجميع

أنها تحمل معها دائماً زجاجة دواء مملوءة بالجين. قالت بولدينا:

«لم ترفض من قبل أي دعوة لتناول بعض الخمر، يا ناند».

لم يتحرك أو يعترض؛ لا بد ألا يُظهر أي إشارة تدل على أنه ليس نائماً. إذا كان بحوزتها طعاماً، ستخبره لكي يشاركها أكله. كان فمه مملوء بمذاق فطائر التفاح الساخنة، ولكن هذا لا يهم، لا يجب أن تعرف بولدينا ذلك. نعم، لا ضرر من بعض الجين، فالجين يدفئ الجسد في الشتاء، ويجفف العرق في الصيف، ولكن لا يجب أن يشرب المرء الكثير منه ... ردد ناند لنفسه في تلك اللحظة: «إنني أشعر وكأنني قد شربت بعض الجين بالفعل»؛ كان يتعرق بعض الشيء، ويلهث طلباً للهواء ...

قالت بولدينا: «إنك على حق يا ناند، على المرء أن يُدرب حواسه قليلاً، إنها تلذع اللسان قليلاً، وتفيد الجسد. أنا على يقين أنك تعرف ذلك يا ناند، أليس كذلك؟ أنا حاسة التذوق لديك. بعض القطرات من حين لآخر، غليون من التبغ، وقبيل عيد الميلاد، حين تذهب لدفع الإيجار، يعطيك البارون سيجاراً ...»

قال ناند موافقاً: «نعم، نعم، تلك الأشياء لذيذة». تلذذ بالمذاق في فمه الجاف للغاية. كان يؤمن أنه: «حين يتعلق الأمر بالمأكل والمشرب، فهناك الكثير من الأمور الطيبة». أصبح فمه مبتلاً بعض الشيء باللعباب، فابتلع ريقه بصعوبة شديدة أعادت إليه

ألم المفاصل، ولكن الألم لم يستمر إلا لوقت قصير قبل أن يغرق ناند مجددًا في شعوره بالرضا. لم يكن ناند متأكدًا من نبرة صوت الشخص الذي يحدثه، هل كانت بولدينا، خادمة القسيس، أم القسيس نفسه؟ ولكنه لم يهتم بذلك الأمر على الإطلاق. قال الصوت:

«نعم، هناك الكثير من الطعام والشراب الطيب. كنت تستيقظ أيام الإثنين وفمك يملئه طعم سيء، طعم نحاسي أو خشبي، أيًا يكن. تتناول القهوة، القهوة الساخنة، فيدفع مذاقها بالطعم السيء بعيدًا. القهوة لذيذة دائمًا يا ناند، حتى لو ابتلعت معها التبغ الذي تمضغه في فمك بالخطأ. يصبح مذاق القهوة أطيّب أيام الإثنين، حين تشربها مع ساندويتش. تناول شريحة لحم دسم مالح مع بطاطس أمرّ طيب في منتصف أيام الإثنين، حتى لو لم تكن شهيتك مفتوحة، ولكن لا يجب أن تكون البطاطس طرية أكثر من اللازم، لأن طعمها في تلك الحالة يصبح مثل البيض، أليس كذلك؟ وبما أنك لا تعمل في الشتاء، ولا تتناول سوى البطاطس، فيجب أن يكون مذاقها لذيذًا، وليس سيئًا، ولكن على أي حال، ما زال بإمكانك تناول شوربة اللحم مع الخبز؛ تلك الوجبة شهية دومًا. في المساء، تتناول البطاطس مع السلطة، وشرائح لحم الخنزير المحمر مع الصوص اللازع. تفوح رائحة تلك الوجبة في القرية كلها في المساء، فتفتح شهيتك وتجعلك تشعر بالجوع حتى لو لم تكن مرهقًا من العمل طيلة النهار.

«تتناول نفس الوجبات تقريباً يوم الثلاثاء أيضاً، ما عدا شرائح اللحم، بدلاً عنها تحصل عند منتصف اليوم على الفاصولياء، أو البطاطس المهروسة مع الخس وأحياناً الكرنب الأحمر، بحسب الموسم. يأكل الأغنياء السلطة بدون الصوص اللاذع، ولكن المجانين فقط هم من يحبون السلطة بتلك الطريقة. السلطة أكل عديم المذاق، البازلاء بالطبع أفضل منها، تذهب البازلاء الجيدة إلى المدينة من أجل الأغنياء، فلا يبقى للمزارعين سوى البازلاء السيئة، ولكنهم يشعرون بالرضا على أي حال. الكرنب الأحمر هو الأفضل على الإطلاق؛ يملأ مذاقه اللاذع المعدة لوقت طويل.

«لا يختلف الأمر كثيراً يوم الأربعاء أيضاً، أليس كذلك؟ وكذلك الخميس، ربما تأكل تفاحة من حين لآخر، أما الفراولة فتذهب إلى السوق، والمشمش الأسود والحرنكش طعام الأطفال، وتُباع باقي الفاكهة وهي ما زالت على الأشجار. تذهب فاكهة الأشجار المسنة إلى القسيس، لتصنع منها بولدينا مشروباً لعلاج الكحة. على أي حال، ما زال بإمكان المرء أن يحصل على تفاحة من حين لآخر. يحوم نحل التفاح حول الأشجار بسرعة هائلة، وفي المساء يغطي البعوض تلك الأشجار، ولكنها فاكهة لذيذة لازعة تروي العطش.

«يوم الجمعة هو يوم السوق؛ تذهب إلى المدينة، وتشرب كأساً أو كأسين من الخمر على الأكثر، وتشرب أيضاً نصف زجاجة

بيرة، لا يُعد ذلك إكثاراً في الشراب. تتناول في منتصف اليوم شوربة الحليب والخبز، مع بيضة وبعض البطاطس، تملأ تلك الوجبة معدتك طيلة النهار، فلا تتناول أي شيء آخر، وفي المساء تتناول سمكة رنجة مملحة.

«يصبح الخبز جافاً مثل لحاء الأشجار، في صباح يوم السبت، باستطاعتك تذوق طعم الردة. أما في مساء يوم السبت، فالخبز الطازج يقلب رائحة البيت بأكمله، تتناول منه فيهبط في معدتك مثل حلوى الوافل اللذيذة.

«ثم يأتي يوم الأحد. بعض الناس يتناولون قليلاً من الجين قبل القداس، ولكنك لا تفعل ذلك أبداً، بل تنتظر حتى انتهاء القداس، فأنت رجل صالح وفقاً لتصنيف القسيس. أما الآخرون، فينتمون إلى التصنيف الآخر، ويجلسون في آخر صف في الكنيسة. أنت تجلس في الصف الأول، وتنتظر حتى يخرج رئيس بلدية، فتخرج بعده. بعد ذلك، تذهب لتشرب الجين، في حانة «الفونت»، أليس كذلك؟ لا تشرب سوى كأساً واحدة، إلا إذا كانت معدتك مليئة بالديدان، فتحتسي مشروب أوراق الرواند ذا المذاق المر مثل البيرة التي يجب أن تتأكد من طعمها قبل أن تشتريها. لم تكن أبداً من محبي لعب البولينج، ولكن لا يلعب الكثير من الناس الأوراق في صباح يوم الأحد، فتضطر للعب معهم. يبقى الجميع واقفاً، فلا تتمكن من الجلوس بارتياح والتركيز في لعب الأوراق.

ماذا تفعل إذن؟ ها؟ تشرب كأسًا آخرًا، ثم تتجول حول أرضك، وتشاهد المزارعين الكبار يتجولون في أراضيهم منتصبين القامة، أما المزارعين الصغار فينحنون للعمل في أراضيهم. يمتلئ الهواء برائحة اللحم المشوي، فتذهب إلى البيت. إنه يوم الأحد، ولذلك نحن نتناول بعض الشوربة والكُرّات أو شيء من هذا القبيل، ولكن هذا الطعام مناسب للنساء، وبعد أن نذبح الماعز أو ربما البقرة التي أصابتها الحمى، نأكل اللحم طازجًا من الحوض. لا بد من ذبح الأبقار المصابة بالحمى، إنها خسارة كبيرة، ولكن الأغنياء يشتررون بعض هذا اللحم، وبذلك نحصل على بعض المال. على أي حال، أنت تفضل لحم الخنزير ... تتمدد في سريرك قليلًا، لأن وقت ما بعد الظهر في يوم الأحد طويل جدًا، وحين تنهض، تأخذ جولة في الحظيرة مرتديًا قميصك الأبيض، وتدخن غليونك لوقت طويل. تفكر في أنك ستتناول بعد قليل وجبةً من لحم الخنزير. يُنقع لحم الخنزير في الملح لمدة كافية، ويُتبل بالليمون والشمر، ثم يُترك ليُجف، وبعد ذلك يُدخن، والآن، ينتظر لحم الخنزير مُعلقًا على المدخنة. ليس هناك طعامًا أفضل من ذلك ...

«هكذا تقضي وقت ما بعد الظهر، وبحلول المساء، تذهب إلى حانة «فورست هات»، لتلعب الأوراق، وتشرب كؤوسًا من البيرة، وقبل أن تعود إلى البيت، تشرب كأسًا أخيرًا من الخمر ليساعدك على النوم، رغم أنك تعرف جيدًا، أن هذا الكأس سيُفقدك شهيتك طيلة الغد. ولكن ما الذي ستفعله حيال ذلك؟ ... لا شيء، إنه

الواقع، فهكذا تسير الأمور في هذا العالم.

«تتناول دائماً أفضل الوجبات والمشروبات في وقت السوق الكبير! في صباح يوم السبت، تفوح رائحة فطائر الفاكهة، بعض الفطائر بيضاء بالكريمة، والفطائر الأخرى بنية بالزنجبيل. وعندما تعود في المساء من المزرعة إلى البيت، تعطيك زوجتك شطائر التفاح الكبيرة مثل عجلات العربة وهي في طريقها إلى الخبز. وفي يوم الأحد، تعطيك يخنة الجزر وقطع لحم الخنزير، بعد ذلك، تتناول الأرز باللبن لتملاً الفراغ بين الوجبات، وتُنتهي اليوم بتناول ساندويتش، هكذا يكون المرء قد تناول أكلًا كافيًا حقًا. طوال فترة ما بعد الظهر، تلتهم النساء حلوى الوافل، وفطائر الفاكهة، وشطائر التفاح، أما الرجال، فيشربون الكثير من كؤوس البيرة، حتى لم يعد بإمكانهم شرب المزيد، وحتى حينها، يشربون كؤوس الجين، ويشربون كؤوبًا من خمر مدينة لوفين، تزيد كل تلك السوائل الضغط في مثاناتهم. في المساء، يحين وقت لحم الخنزير، ولكن ليس باستطاعتك أكل المزيد، وبحلول وقت الذهاب إلى السرير، تكون قد أكلت كثيرًا جدًا، وتتعجب كيف لم تنفجر بعد كل هذا. تستيقظ صباح الاثنين، فتجد أنك ما زلت ترتدي قميصك الأبيض. وفي وقت ما بعد الظهر من يوم الاثنين، تكتفي بتناول القهوة مع مكعبات السكر وخبز الزنجبيل، ونصف قطعة حلوى. ورغم أنك كنت على الأرجح سكرانًا بالأمس، تذهب في المساء لتشرب بعض الخمر، وتلعب الأوراق فتفوز

بكأس من البيرة ...»

كان ناند يعرف كل تلك التفاصيل التي ملأته بالدفء والسعادة. وبينما يتمدد في سريره بلا حركة، تحركت مشاعره تأثراً بتلك الذكريات، قال: «نعم، لقد حصلت على كل هذا، الحمد لله، لقد حصلت على كل هذا». ظلت تلك الفكرة تجول بخاطره، وكلما جالت أكثر، كلما تأثرت مشاعره أكثر. تذكر مجموعات الناس التي شاركت في تعميده، وتذكر الأم الروحية التي ثملت بالتدريج بعد أن تناولت أكواباً من خليط اليانسون والنعناع والروم. تذكر المناولة الأولى حين يشرب المرء أولاً كوباً من حليب الشكولاتة ثم كأساً جين، ثم تذكر كيف كان ليبرتتا، حبيبته بيرتتا، شعراً متموجاً جميلاً. يزداد تناول الأكل والشرب في الأفراح أكثر بكثير من السوق الكبير، ولكن في كل زواج خسارة؛ يرحل طفل إلى هنا، وطفل إلى هناك. ألم يسافر طفله دوميان إلى أمريكا؟ لقد رحلوا جميعاً وتركوا والدهم المسن وحيداً، ليتحمل عبء الأرض والحيوانات ... أوشك ناند على البكاء عند تلك اللحظة. امتلأت عيناه بالدموع الدافئة، القادمة من البقاع المظلمة في روحه، وارتفعت حرارة أنفه وعينييه. يا الله، لقد تركوه وحيداً ... فكّر في الوجبة التي تناولها يوم جنازة ويني، زوجته ويني، كم أصبح وحيداً بعد موتها، وحيداً تماماً، وكيف أنه الآن ... نعم، إنه يحتضر الآن، ألم يكن؟ يرقد هناك، يرقد هناك مهجوراً ووحيداً بالكامل ...

ثم، ثم ...

## الفصل الرابع

لم يبكِ ناند، وتراءى له جسدُ في الظلام، ينحني ناحيته. كانت امرأة تلف جسدها في رداء. رأى ناند طيات الرداء بوضوح. أحكمت المرأة اللحاف حوله بأصابعها النحيلية المرتعشة، مما جعل اللحاف يرتعش، ثم ضربت بيديها على الوسائد كي تجعلها أكثر طراوة، ودلته تمامًا كما كانت تفعل أمه عندما يصيبه المرض في صغره. شعر ناند أن المرأة تواسيه، فاسترخى في السرير، وتمدد استعدادًا للنوم. شعر ناند بأنفاسها الدافئة على جفنيه، فضبط إيقاع أنفاسه على إيقاع أنفاسها. كان ناند راقداً عميقاً، عميقاً في السرير، وشعر برأسه تغرز عميقاً في الوسادة، وجسده ممدد تحت طبقات الأغذية الناعمة. انشغل ناند بأفكاره، كما لو أنه على وشك النوم لبعض الوقت ...

ولكنه لم يشعر بأي ضغينة أو ندم، حين أيقظه صوت المرأة الهادئ والدافئ، يهمس في أذنه سائلاً:

«هل تعرف من أنا؟ هل تعرف من أنا؟» ولكنه لم يكن بحاجة إلى التعرف عليها، فقد كانت تلك المرأة أمه ...

سحبت الكرسي الذي تعلق عليه القبة. فكر ناند كما لو أنه أصبح على مسافة بعيدة من كل ما يحدث حوله: «مؤكد ستضع أمي القبة على الصندوق»، كانت بالفعل قد وضعت القبة هناك، ثم جلست بجوار السرير، بإمكانه الآن أن يشعر بها، وأن يسمع صوت حركة خرز السبحة في يديها، كما أنه سمع صوتها يتمم بكلمات في الظلام. كان الظلام ناعمًا ودافئًا مثل القטיפه السوداء. سمع ناند أمه وهي تتمم بكلمات وتحرك خرزات السبحة، ثم هُيأ له أنه سمعها في نعاسه الذي راح يغرق فيه أكثر وأكثر، قالت:

«هل أنت مرتاح الآن يا ولدي؟ هل تشعر بالدفع؟ لقد أحكمت اللحاف حولك. تتمدد مرتاحًا الآن، أليس كذلك؟ لا يملك الفقراء سوى دفع أجسادهم، لتعالجهم، فالموت يأتي من البرد، ولكنك تتمدد الآن، دافئًا يا صغيري، وبإمكانك أن ترتاح ...

«يا الله! كم يعاني الفقراء من البرد! صحيح أن برودة الرياح والثلوج تحرك دم الصغار، وتجعلهم يستمتعون بفرد أذرعهم وأرجلهم في الهواء حتى تومض أطرافها بزرقه البرودة، ولكن الأطفال يدفئون أنفسهم بالضحك وإلقاء كرات الثلج، وحين تشعر الفتيات الصغيرات برقاقات الثلج تسقط ببطء وتستقر على وجناتهن، أو يشعرن بوخز الصقيع مثل رؤوس الإبر، فإنهن يضحكن، فذلك الوخز يذكرهن بقشعريرة القبلات الحارة. يرتعش

الأطفال بالبرودة إذا ما اضطروا للبقاء في السرير، ويكون. لا يحلم أحد بالحب في ليالي الشتاء القاسية، سوى مربو المواشي ورفاقهم؛ فالفقراء لا يملكون أي رفاهية، سوى دفء أجسادهم، والمحظوظون منهم هم أولئك الذين تزوجوا، فوجدوا في النوم مع زوجاتهم دفئًا. ليس هناك أسوأ من برد الأرامل يا ناند.

«عندما يكون جسدك دافئًا، تصبح شجاعًا. أنت دافئ الآن، أليس كذلك يا ناند؟ إذا بإمكانك أن تفكر في أيام شبابك، حين كان بإمكانك أن تعمل في المزرعة حتى تتصبب عرقًا، أو تذهب مع عمّال الحصاد وهم يحصدون، لقد كنت تشعر بالدفء في جسدك الذي يصبح أكثر سخونةً من الشمس نفسها، وحين يأتي الصيف، كنت تذهب إلى النهر وتمشي في مياهه حافي القدمين، أو تصب الماء البارد في حلقك، فيملئك شعور العرفان تجاه الحر، لأنه السبب وراء شعورك بهذا الانتعاش. حين تزوجت، ألا يجد المتزوجون الليالي الدافئة أفضل؟ وحين كبرت في السن: ألا تشعر أنه لو لا الدفء، ما كنت تمكنت من الحركة أو التفكير أو الكلام؟ البرد يجعل عظام رأسك وساقيك متيبسة وحادة كالزجاج.

«ولكنك الآن تتمدد شاعرًا بالدفء يا ناند، في سريرك. لم تعد توجد أي جروح على أصابعك من العمل، يمكنك أن تشعر بلمس القميص القطني الناعم على بطنك، ولمس الملاءة المحبب على

فخذيك. نعم، لا تكفيك تلك المتع الصغيرة، ولكنها تُطمئنك؛ تشعر على جانبي رأسك بلمسات الوسادة الصوفية، فتطمئن، وإذا شعرت بلمسة برد على جبهتك، فهذا جيد أيضًا، لكي تتصدى لسخونة الأفكار في رأسك، هل تشعر ببعض البرودة على جبهتك الآن، يا ناند؟ يمكنك الآن التفكير في أبنائك وزوجتك، يمكنك التفكير في حياتك كلها...»

نعم، كان ما يزال بإمكان ناند التفكير في أبنائه وزوجته، كان ما يزال بإمكانه التفكير في كل ذلك في مستهل النوم العذب الذي أشرق عليه مثل ضوء الفجر، إنه يعرف الآن أنه يرقد استعدادًا لذلك النوم، ويعرف أنه لم يعد مستيقظًا، لم يبق مستيقظًا؟ فوضعه على ذلك النحو الآن أفضل، على ذلك النحو... وظلت الكلمة تتردد داخله:

«إن جلد طفل وليد يا ناند، أنعم ما يمكنك لمسه في العالم كله، يمكنك القول إن ملمس هؤلاء الأطفال، ليس أكثر من رائحة، رائحة وردة أو بسكويت، ولكنهم حين يكبرون، يجلبون القلق؛ حين تلمس ثنايا بشرتهم، وتشعر بالسخونة في أطرافهم، تعرف أنهم مرضى، يا ناند، فتشارك قلقك مع زوجتك. لقد مضى وقت طويل منذ تعرفت على زوجتك لأول مرة، لقد انجبتما أطفالًا معًا، أطفال ترقد مريضَةً في السرير، تنحني عليهم لتتفحصهم، وتنحني زوجتك أيضًا، ذراعاها عاريان، هل تتذكر كم كان ذراعاها ناعمين

ودافئين حين بدأتما تخرجان معاً منذ زمن؟ كنت تلمس ذراعيك مزهواً بصلابتهما وامتلاتهما بالقوة. الآن، تقف بجوارها، يكاد القلق يصيبك بالجنون، وتفكر في شفيتها الغليظتين الدافئتين، هل تتذكر كيف شعرت بالألم بعد أن لمست شفيتها لأول مرة ...

«لم تكن مزارعاً كبيراً، يا ناند، بل كنت مزارعاً ماهراً؛ تصقل نصل المحراث بيديك، وتلمس مقبض الشوكة حتى تتأكد أنه لم يعد يصدر صريراً عالياً. وحين تُنهي عملك، تتأمل كلبك القوي بسعادة، ويملئك جلد بقرتك الناعم بالرضا، وحين تتحس مفاصل العجول الوليدة، وتشعر فيها بسخونة الحمى، تعرف ما يجب عليك فعله، تعرف كيف تتصرف في تلك الحالة أفضل من تصرفك مع أبنائك حين تصيبهم الحمى. تعرف بمجرد النظر يا ناند، برودة الأحواض التي تصيبك بالقشعريرة، وجفاف جهاز خض الزبدة الصلب، وقسوة المناجل الثلجية، تلمس يدك المبتلة بنطالك المضلع، يا ناند، ويحتك جلدك بنصل المقص ...

«لقد أصبحت مسناً يا ناند، وأصابت الخشونة ركبتك الغليظتين، وأنت ... يا ناند، أنت ...»

كان ناند يعرف جيداً ما الذي يريد قوله بالتحديد. حسنٌ، لم يكن يعرف بالتحديد؛ بل رقد عميقاً هناك في سريره، تملأه السعادة، والدفء، ولم يتجرأ على تحديد ما يريد قوله بالضبط، ولكنه يعرف جيداً الذكريات التي بقيت معه حتى ذلك الوقت،

لقد كانت تلك الذكريات مثل شعلة خافتة، تحترق داخله، ليس بإمكانه النفخ فيها، وليس بإمكانه التنفس دون أن يطفأها بالتدريج، أنفاسه تقتلها، وهو لن يراها مجدداً أبداً. لقد كانت، لقد كانت تلك الذكريات آخر ما تبقى داخله، أراد أن يتمسك بها، أراد أن يتمسك بكل ما تبقى منها مشتعلًا فيه. كان قد أغلق بأصابعه جفني ويني، زوجته، بعد أن ماتت، ما زال بإمكانه الشعور بجفنيها على أصابعه ...

فجأة، امتلأ ناند بتوتر حزين، وخشي أن تلك الشعلة في طريقها إلى الاختفاء، تلك الذكرى الأخيرة ستنتطفئ، وسيموت مملوءاً بكل ذلك الحزن الذي يصحب الخسارة. ما الذي يعنيه كل هذا؟ كل هذه الأشياء التي تمكن من الاستمتاع بها: عيناه وأذناه وأنفه ولسانه، كل هذه الأشياء التي لمسها بيديه ولمسها بقلبه؟ ما قيمة كل ذلك لو أنه الآن سيضطر إلى الرحيل وفي قلبه غصة، بعد أن هجر الذكريات التي لطالما أبقته حياً؟ ...

## الفصل الخامس

تمدد ناند في أعماق ذلك الحزن الذي بدأ في غمر جسده كله، حتى خنق الحزن حلقة، وطعن رسغيه وركبتيه. حاول ناند أن يتحرك، حاول أن يمنع نفسه من الغرق في ذلك الحزن، وأراد أن يقول، أن يقول إن ... ولكنه لم يستطع التكلم، انعقد لسانه ولم يعد بإمكانه فكه. أجبر ناند عينيه على الفتح، كما لو أنه أراد أن يستجدي المساعدة ...

فجأة، أصبح ناند هادئاً تماماً، فتح عينيه، فرأى في ضوء المساء الساطع، أن كل شيء في مكانه في الغرفة النظيفة، تمثال العذراء على الصندوق الخشبي، قبعته القديمة على الكرسي، ورأى شيئاً آخر، رأى ويني، ويني العجوز، تقف بجوار سريره، مملوءة بالشفقة ...

لم تكن ويني، بل كانت روحه التي استيقظت ... ولكنها كانت ويني أيضاً ...

رأى أن ويني تبتسم له بسلام، ثم بدأت في خلع ملابسها قطعة تلو الأخرى، ثنتهم بعناية ووضعتهم على الكرسي ذي

القبعة. رأى أنها تستعد للقُدوم إلى السرير أيضاً، وعرف أنها منذ تلك اللحظة ستبقى معه إلى الأبد ... رأى أنها ركعت على ركبتَيها لتصلي، فأغلق عينيه، وصلى في خياله بجانبها: «أبانا الذي في السماء...»

عندما انتهى من صلاته، انتظر للحظة، انتظر حتى تتكلم ويني، ولكنها لم تقل شيئاً. أراد أن يقول هو شيئاً، ما الذي يمكن أن يقوله ...؟ انتظر لوقت أطول، ثم بدأ في الابتسام بدهاء، فقد توصل إلى ما يريد أن يقوله، لقد عرف أخيراً، نعم، لقد عرف ...

فتح نأند فمه، فمه المظلم، ولكن لم يخرج شيء.

لقد مات.